طاقات اللغة العربية

للأستاذ حامد حسن
عضو المجلس الاعلى للآداب
(دمشق)

جمعت لغة العرب من الخصائص ، وتوفر لها من المميزات ، ما لم يجتمع ويتوفر فى غيرها من اخواتها الساميات .

فقد اخذت خير ما فيهن من الالفاظ والتعابير والمصطلحات ، لانها احدثهن انفصالا عن اللغة الام : فهي أوسعهن مفردات ، واكثرهن مترادفات ، والينهن حروفا ، واسهلهن مخرجا ، واعذبهن نطقا ، واصفاهن نغما وجرسا .

واللفظة العربية تمتاز عن غيرها من الفاظ اللغات الاخرى بانها تستدعي اختها استدعاء لحيفا ، لتقف الى جانبها بواسطة « المتعلق » وروابط الكلمات، والجمل، وادوات الفصل والوصل .

وهي الى جانب كل هذا تحتمل المعنيين :

1 — المعنى المباشر : وهو المعنى الذي وضع لمفهوم اللفظة منذ نشوئها .

2 — المعنى المجازي : وهو كما يدل عليه اسمه، اي ما تجاوز الحقيقة الى ما يقابلها لرابط بين المعنى الحقيقي ، وبين هذا المقابل .

ولقد ادخلت العصور الحديثة والتطور الحضاري على اللفظة العربية ، ظاهرة « التجسيد » ، ووسعت عالم طاقتها ، **وفجرت هذه الطاقة** ، فخلقت عوالم من الصور ، وكونت دنياوات من الاحاسيس ، ما كانت تحملها اللفظة العربية من قبل .

وهذا ان دل على شيء ، فانما يدل على **مرونة اللغة العربية** ، واستجابتها لمتطلبات الحياة ، ومقتضيات الحضارة . وانها **كائن حي** ، نام ، خاضع لنواميس التطور ، وقوانين الارتقاء .

ويتحلى الذهن العربي بالنقاء والصفاء ، والتفتح والانطلاق ، والتمرد والانعتاق من الحدود الضيقة ، وكل ذلك من معطيات الطبيعة الصحراوية ، المتفتحة الآفاق ، الملونة الجواء ، المترامية السعة والابعاد ، وانعكس كل ذلك على اللغة العربية ، وظهر فى مفرداتها وتعابيرها ، وصورها واغراضها .

واجتمع من كل ذلك للعربي جمال التعبير ، الى سعة الخيال ، وخصبه ، وحرارة العاطفة وتوقدها ، وامداء التطلع والتشوف ، وبلغ القول عنده غايته الجمالية ، فكانت البلاغة ، وكان الاقناع ، والبلاغة والاقناع هما كل ما ترمي اليهما اغراض التعبير فى كل اللغات .

وانك لتجد فيما تركه العرب من اشعارهم ، واقوالهم اللفظة المأنوسة المعبرة ، المسؤولة عن رسالتها فى الجملة ، والجملة الصحيحة المسؤولة عن دورها فى تادية الفكرة ، واغناء الصورة . تتساوق

كلماتها وتتناغم حروفها ، ويضاف الى هذا تزاوج فى الجمل المترادفة على المعنى الواحد لزيادة ايضاحه ، وتركيزه فى الذهن ، وتلوينه ، وعرضه بصور متعددة .

كما تجد التوازن والتوافق بين هذه الجمل ، والتجاوب الموسيقي ، وكل ذلك يشترك اشتراكا مباشرا ، ويتوزع توزيعا طبيعيا محكما ، ليعطينا المعنى المراد .

1 — الجمالية فى المقطع الصوتي :

لعل فى بيت البحتري الذي يصفه تموج الشمس على زجاج حيطان القصر الكامل — احد قصور الخلافة فى بغداد — وتشبيهه بأمواج البحر خير مثال للتجسيم الصوتي فى الكلمة .

وكأن حيطان الزجاج بجوه
لجج يمجن على جنوب سواحل

فهذا الاجيج الذي يحدثه حرف الجيم فى البيت يجسم لك صوت الامواج فى ساحل البحر .

وقال :

ذعر الحمام وقد ترنم فوقه
من منظر خطر المذلة هائل

فالحروف والمقاطع التي تتالف منها لفظة « ترنم » الواردة فى البيت تعطينا صورة صادقة لصوت الحمام المترنم على شرفات القصر .

قال شاعر يصف كوخه :

غنة الاغن فيه ، وبه بحة الناي ، وبوح المزهر

فالنونات المشددة ، وحرفا الغين الواردة في صدر البيت تعطي صوت الاغن وغنته ، وصحل حرف الحاء فى عجز البيت يصور — صوتيا — بحيح الناي ، وبوح المزهر .

وكل الافعال الرباعية المضاعفة فى لغة العرب مثل زعزع ، ولعلع ، وزلزل ، ودمدم ، وجلجل ، هي أصوات تجسمت مقاطع وكلمات، وتضعيفها يعني تواتر الصوت ، وتكراره .

ويمكننا ان نطلق على هذه الزمرة الاخيرة من الاصوات اسم « حكاية الاصوات » لانها تحكي الصوت ذاته ، فى حين يمكننا — ومن باب الدقة — ان نطلق على الزمرة الاولى اسم « أصوات الحكاية » لانها تحكي الظاهرة النفسية ، وتصعد مخزون النفس من اللذة والالم عن طريق المقاطع الصوتية المختلفة .

2 — الجمالية فى اللفظة مفردة ومركبة :

اللفظة المفردة تقوم بدور هام فى اعداد النفس ، واحداث الاضطراب فيها ، ولكن دورها مركبة يكون اكثر عمقا فى الوجدان ، واقوى لمسا للاحساس ، واقدر على تحريك سواكن النفس ، واستثارة كوامنها، وادعى لبعث انفعالها وهيجانها .

واللفظة المفردة مهما أوتيت من تساوق الحروف، وتزاوج المخارج وتناغم اللفظ ، ومهما حملت من سعة المعنى ، وشموله ، وجلاله ، فانها لا تستطيع أن تؤدي الرسالة التي تؤديها وهي مركبة ، وانها لاشبه بالدرة الفريدة يزيدها انتظامها فى العقد بهاء ورونقا ولالآة .

فالتركيب فى اللغة العربية اذا تعهدته يد صناع، وتكفله ذوق سليم ، ونظمه عقل عليم بأسرار الجمال البياني اذا تم له كل ذلك تفجرت **طاقات الالفاظ واندياح عبيرها الآسر** ، وملأت جواء النفس ارتعاشا محببا ونشرت فى جوانبها وأعماقها ارتياحا عميقا .

لا يمكن لحجارة البناء مهما كان حظها من جودة الصقل ، ونصاعة اللون ، وكرم المعدن ، واستقامة الزوايا ، أن تستأثر باعجابنا ، وتستحوذ على تقديرنا، وهي مفردة ، متفرقة ، كما لو ضمت الى نظيراتها فى بناء القصر المنسق الجميل ، الذي صممته يد مهندس خبير بأسرار البناء .

ولنأخذ على سبيل المثال : لفظتي : ارتد النفس — بفتح الفاء — فماذا تعطياننا ؟؟ انهما تعطياننا المعنى المباشر الموضوع لهاتين اللفظتين فى طفولتهما وهو معنى لا يثير فينا هزة ، ولا يحدث فى أعصابنا زلزلة ، حتى ولا اختلاجة ، وما ذلك الا لانه أخذ بمعناه العادي البسيط على طريقة الاخبار أو الانشاء .. ولكن لنأخذه بمعناه المجازي ، ونضعه مع مقابل له يزيده وضوحا، ويكسبه بالمقارنة روعة وجمالا .

قال بشار بن برد — مخضرم الدولتين الاموية والعباسية — يصف حركات حبيبته :

صدت بخد وجلت عن خد
ثم انثنت كالنفس المرتد

لقد أحسن الشاعر توظيف هاتين الكلمتين ، وتمكن ببراعته وخبرته بصناعة البيان العربي أن يحملهما مسؤولية فنية ، وهذه المسؤولية هي : تشبيهه سرعة حركات حبيبته بسرعة تكسبها خفة ورشاقة وجمالا .

ونجد وراء هذه الصورة التي تتبادر أولا الى اذهاننا معنى أدق وأبعد وغرضا أسمى وأعمق وهو أن صاحبته رشيقة القوام ، وكثيرة الميسان ، وهي صفة محبوبة فى نساء ذلك العصر ، كما يوحي هذا التعبير الينا انها حيية خفرة ، تنفتل بخفة ورشاقة لتتقي الناظرين ، والخفر والحياء صفتان مرغوب فيهما فى المراة العفيفة .

والآن لنأخذ لفظة « الشهوة » أو جمعها « الشهوات » فعلى ما فى هذه اللفظة من مقاطع صوتية مثيرة ، كالشين المشددة المفخمة ، والهاء الحلقية ، والجهد الذي تبذله الشفتان فى التلفظ بمقطع الواو ، فان كل ذلك يظل مقصورا على حركات ، وانقباضات ، وانبساطات ، يقوم بها جهاز النطق ، لتهيئة النفس لقبول الاثر الخارجي ، ولكن اذا أخذنا هذه اللفظة مركبة مع غيرها كما أوردها العباس بن الاحنف ، فانها تخلق جوا أوسع ، وأصدى ، وأنغم :

أتأذنون لصب فى زيارتكم
فعندكم شهوات السمع والبصر

فتوالي حركات هذه اللفظة وامتداد الصوت عند نطقها ، واختلاف هذا الامتداد بين الثنايا ، والصدر ، والشفتين ، واضافتها الى لفظتي السمع والبصر يخرجها من طفولة المعنى وبساطته الى عنفوانه وسموه وروعته .

وهل فاتك أن العباس بن الاحنف هو من شعراء العفة العذريين القانعين بشهوات السمع والبصر ، عن شهوات اللمس والذوق الحسيين ، وانه استطاع بهذا البيت أن يترفع بالحب عن الدنيا ، مع انه استعمل لفظة كان مدلولها — فى الاصل — للذوق واللمس الماديين .

ولفظة « تحير » تفيد التوقف ، وعدم الاهتداء ، ولما استعملها ابن أبي ربيعة فى محلها ، ونفث بها من مجاز المعنى ، أعطت جمالا أغنى ، وأفقا أرحب ، وربيعا أخصب .

وهي مكونة « تحير » منها
فى أديم الخدين ماء الشباب

فما الشباب على ترقرقه وصفائه فى الخدين ، وتوهجه بنار الشباب ، لم تكتمل ملاحته ، ولم تستفض روعته ، الا بهذا « التحير » .

هذا مع الاشارة الى اني أرغب فى التجاوز عن لفظة « أديم » الواردة فى بيت ابن أبي ربيعة ، واعتبرها ، تلقة ، غريبة ، نالت من جمال البيت ، وترف لفظه ، ولم يشر النقاد — قديما أو حديثا — الى ذلك مع أنهم أشبعوا هذا البيت نقدا ودرسا وأكثروا منه تمثيلا واستشهادا .

وعند كثير عزة نجد أمثال هذه الاوابد الشوارد التي يمتاز بها شعر العرب ، قال :

لو أن عزة خاصمت شمس الضحى
فى الحسن — عند موفق — لقضى لها

فهل بادهتك الروعة وبهرك الجمال فى شبه الجملة المعترضة — عند موفق — ؟ ؟

وأي معنى تحصل عليه اذا جردت البيت من هاتين اللفظتين المعترضتين ؟ ؟

من المتخاصمان ! ! عزة ، والشمس .

الشمس فى رأد الضحى ، لا فى مستهل الصباح ولا فى اصفرار الاصيل ! !

ما هو الحكم المشروط ؟

هو أن يحكم لعزة على خصيمتها ليكون موفقا .

وهذه لفظة « تتقرى » وهي على شيء من الغرابة وخشونة اللفظ ، أخذها البحتري واستعملها فى ازالة شكه وارتيابه ، المغتلى ، عندما وقف يتأمل بدهشة وذبول صور الفرس والروم ، واعلامهم وسيوفهم ورماحهم المشرعة فى معركة انطاكية المرسومة على جدران ايوان كسرى ، حتى خيل اليه انهم أحياء — جد أحياء — .

ولا يفوتنك التعبير — جد أحياء — لما فيه من التأكيد والالحاح على السامع ليقنعه بأنه يرى أناسا أحياء ، لا صورا مرسومة على الجدران .

هذه اللفظة كما ذكرنا استخدمها هذا الشاعر للتأكد من الحقيقة عن طريق لمس اليد — لا بل اليدين متناوبتين فى اللمس ، أو متعاونتين — فجاءت كما أرادها طبعه السليم .

تحسب العين أنهم جد أحياء
لهم بينهم اشارة خرس

يغتلي فيهم ارتيابي حتى
تتقراهم يداي بلمس

ومن التعابير الفنية الغنية التي تزخر بها لغة العرب قول الشريف الرضي :

ولقد مررت علـــى ديارهـــم
وطلولها بيد البلـــى نهـــب

وتلفتت عيني ، ومـــذ خفيـــت
عني الطلول ، تلفت القلـــب ! !

فالتفاتة العين شيء طبيعي لا يستثيرنـــا ، ولا يحدث فينا هزة ولا ارتعاشة ، أما تلفت القلب فهـــو الشيء الذي ينتزع اعجابنا ويحركنا لما فيه مـــن (تجسيد) اللفظة . والذي زاده امعانا فى الحسن ، وايغالا فى الجمال هذه المقارنة بين تلفت العين وتلفت القلب .

بين هذه الالتفاتة الطبيعية وهذا الالتفات المجازي، ومن التداعي للمشابهة ، والمناسبة ، أن نورد فى هذا المقام قول البحتري ايضا :

عذيري فيك مـــن لاح اذا مـــا
أطلت العتب « حرقنـــي » ملامـــا

فتعبير « حرقني » بلغ غاية الاجـــادة لما اجتمع للفظة « حرقني » من مقاطع صوتية هازة ولما فى وزن « فعل » من تعطيش عين الفعل وقوتها ، ولـــما فى اسناد « التحرق » للملام ونقلـــه من معناه الذي هـــو للنار الى المعنى المجازى ولما بين حرارة النار وحـــرارة الملام من مشابهة فى الايلام .

ويجدر بنا أن نشير هنا الـــى « الجماليـــة » فى المقاطع الصوتية الواردة فى صدر هـــذا البيـــت ، فامتداد الصوت فى الياء الساكنة المكسور ما قبلها فى لفظتي ، عذيري ، وفيك ، والالف الساكنة المفتوح ما قبلها فى الفاظ « لاح » « اذاما » يحمل شحنة عاطفية ترتاح اليها النفس فى هذا الانسياب الناغم .

* * *

والآن وبعد ما تقدم علينا أن نحاول ايجاد نوع جديد من الدراسة الفنية ، نطبق فيه ـــ بقدر الامكان ـــ المعايير والمقاييس الحديثة التي اشرنا اليها فى هذه الدراسة لتكون منهاجا جديدا يخرجنا من نطاق الدراسات الكلاسيكية المعروفة .

نعتمد فى هذا المنهاج على ثلاثة عناصر :

1 ـــ البناء النغمي او الموسيقي او ما سميناه بجمالية المقاطع الصوتية ومدى تناسقه مع التوتـــر النفسي ، وقوة حركته وموجاته .

2 ـــ البناء التناسقي وتداعي الكلمات وتآخيهـــا وتماسكها وحيويتها .

3 ـــ البناء المنطقي او عمل العقل المنظم من حسن عرض واغناء صور وتلوين آفاق .

على ضوء هذه الاسس والمقاييس سنتلمس الجمالية فى هذين البيتين ومدى الشحنة العاطفيـــة والوجدانية التي يحملانها ، والاثر الذي يتركانـــه فى النفس . ونرى هل توفرت هذه العناصر وما هـــي النسبة لكل منها .

ولما نزلنا واديا طله النـــدى
حييا ، وبستانا من النور حاليـــا
أجد لنا طيب المكـــان وحسنـــه
منى ، فتمنينا ، فكنت الامانيـــا

1 ـــ اننا نجد التشديد المتعطش ، الذي يعنـــي التوقف لخلق شحنة من الاستثارة وتعميقها فى سبعة مواضع من البيتين ، وفى الالفاظ التالية : ولما ـــ طله ـــ الندى ـــ حييا النور ـــ أجد ـــ فتمنينا .

2 ـــ نجد الاطلاق الصوتي فى الالف الساكنـــة المفتوح ما قبلها فى خمسة عشر موضعا ـــ ولما ـــ نزلنا ـــ واديا ـــ الندى ـــ حييا ـــ وبستانا ـــ حاليا ـــ لنا ـــ المكان ـــ منى ـــ فتمنينا ـــ الامانيا .

وهذا الانسياب الصوتي مع الالف الساكنة يعني راحة النفس يقذف ما تخزنه من الطاقة العاطفية .

3 ـــ نجد بوحا هامسا فى لين الواو والياء الساكنتين فى لفظتي ـــ النور ـــ وطيب ، وفى ضمة الهاء المشبعة من لفظة « حسنه » .

وهذا كله يشكل خطا بيانيا متعرجا للتوتر النفسي الداخلي ، والفترات الزمنية التي تستغرقها الذبذبات والاصوات فى اغوار النفس ، صاعدا مع الضمـــة واشباعها ، متناسبا ممتدا مع الفتحة ، مستقيما صلبا مع التشديد ، هامسا منغوما مع اللين والسكـــون ، هابطا رقيقا مع الكسرة .

ولعلك لم تفتك هذه الانات التي تبعثها فيك هذه النونات المتعاقبة فى شطر البيت الثاني منـــى ـــ فتمنينا ـــ فكنت الامانيا . فهذه « الغنة » التي يحدثها هذا الحرف النغيم تعطينا صورة صوتية مهموسـة ناغمة لما يعتمل فى اعماق النفس من انفعالات .

أما البناء المنطقي وتسلسل صوره فيتجلى فى أن الوادي المطلول يكون « حييا متحليا بالنور والاريج ، ويصبح النزول به ـــ وهو على هذه الشاكلة ـــ حاجة طبيعية ملحة .

ثم جاءت لفظة لما الحينية لتضع الزمان بجانب المكان ، ليكون للقول مرتسم فى الذهن وتصور فى الخيال ، لان الذهن والعقل يتطلبان الحدود الزمانية والمكانية ، ومتى حصل الزمان والمكان اطمأن العقل وهدأ الذهن ودخلت الحادثة فى حيز الحصر والامكان والتصور .

وهنا ندرك أن قيام الزمان والمكان فى تصورنا والنزول فى الوادي الطليل بالانداء توفرت الاسباب الخارجية المثيرة للحواس ، فتم التداعي واستحضار الصور فتذكر الشاعر حبيبته .

وانظر كيف « نكر » الشاعر لفظة « منى » لتكون شائعة فى جنس الامنيات العديدة وكيف عرف لفظة (الاماني) فى قوله « فكنت الامانيا » والمعرف يستغرق كل الجنس لا بعضه .

ولو أردنا استقصاء الجمال فى هذين البيتين لاعوزنا وقت أطول ولكن حسبنا اننا اشرنا بعض اشارة ودللنا بعض تدليل على الجمال المتدفق منهما متطعا ولفظا مفردا ومركبا .

تلك المأمة عجلى ، ولمحة خاطفة ، بل ذلك غيض من فيض ، مما تزخر به لغة العرب — وخاصة فى الشعر — من جمال صوتي ، وتعبيري ومعنوي وهي خاصة تميزت بها لغتنا العربية عن الكثير من اللغات .

ولكن هذه الكنوز لا يمكن استخراجها ، والانتفاع بما فيها ، الا اذا توفرت فى المنقب الدارس الملكة الفنية ، والحس الرهيف ، والذوق الرفيع ، والعلم الواسع ، والاطلاع الشامل على اسرار الكلم العربي ، وأوتي القدرة على استجلاء معانيه واكتناه جمالاته ، وتفجير طاقاته فعلى ادباء الامة العربية أن يكتشفوا هذه الجوانب الجمالية المتميزة فى لغتهم ويكشفوها للعالم .